سينا موريـــا

في أيار عام 1956 قبل أن أضع يوسف بشهر، جاءت لزيارتنا "سينا موريا" وهي صديقة عفيف الألمانية، التي تعرفت عليه في فرنسا عند مقرّ الأمم المتحدة، ورجته أن يسمح لها بحضور الجلسات برفقته لأنها مهتمة بالشرق الأوسط.. كان قد حدّثني عنها قبل زواجنا، وقال لي أنه قطع علاقته بها حين صدر مرسوم من الشيشكلي يحظر على العسكريين الزواج بأجنبية، وهي نفسها التي شاهدت صورتها في خزانة الثياب في غرفة نومه عند أهله ومعها مجموعة رسائل بعضها مفتوحة والبعض الآخر لم يفتح بعد. وسألت عفيف ان كنت أملك الحق في أن أقرأ تلك الرسائل فقال لي "ليس هناك سر بين الرجل وزوجته، ولك مطلق الحرية في أن تفعلي بها ما شئت".

قلت له: "وهذا المخطوط باللغة الإنجليزية، أيحق لي أن أطلع عليه؟" قال "بلى انه ليس سرا.. انه محاضر الإجتماعات التي جرت بيننا وبين اسرائيل من أجل الهدنة التي سبقتنا اليها مصر.. وكان رئيس وفد الهدنة العقيد محمد ناصر(كان قائد الطيران في الجيش واغتيل عام 51 زمن الشيشكلي، وهو زوج ابنة عمي) وكنت أنا وصلاح الطرزي أعضاء فيها.. وهناك نسخة عند كل من شارك في هذه الإجتماعات هنا وفي اسرائيل، وفي خارجية البلدين.. انها وثيقة تاريخية فاحتفظي بها!" وأردف ضاحكا "تصوري أنني أريتهم نجوم الظهر.. كنت أطيل أمد الإجتماعات الى ما بعد منتصف الليل وأجعل ذلك المتحذلق "موشيه دايان" يوقّع على قبول اتفاقات ليست في صالح اسرائيل، وقد أخذ به النعاس كل مأخذ بينما أنا متنبه تماما وقد تجدد نشاطي"..

قرأت بضعة رسائل مفتوحة لسينا موريا وأتلفتها مع باقي الرسائل والصورة اذ لم يكن لدي وقت للقراءة، فأنا أعدّ الحقائب للإنتقال الى منزلي الجديد في السادات.. والنجار قادم لفك الخزانة والسرير ونقل محتويات غرفة النوم الى بيتنا.. وقلت لنفسي "لو بقي في نفسه أي ظل لهذا لهذا الحب القديم لما كان ترك الرسائل الباقية مقفلة.. انه رجل عملي ولا يريد أن يرتبط بعاطفة لا أمل فيها،

وأنا واجبي كزوجة أن أنسيه كل من عرف من نساء قبلي بحناني وحبي وحرصي على مصلحته وايماني به وبمستقبله.

رن التلفون وسمعت صوتا نسائيا يتحدث بالإنجليزية ويسأل ان كان هذا منزل المقدم عفيف البزري، فأجبت بالإيجاب "أيمكنني أن أتحدث معه؟" سألت المرأة. "ليس موجودا" أجبت..

ظننت أنها احدى الصحفيات، فقد زارنا عدد منهن منذ تولى عفيف المحاكمات.. احداهن كانت من جماعة تروتسكي، وأهدتنا كتابا لها، وأخرى من أنصار السلام، وثالثة مبشرة مسيحية تقنعنا بحق بني اسرائيل في العودة الى أوطانهم كما جاء في التوراة والإنجيل..

تلفنت المرأة مرتين، فلما جاء عفيف للغذاء أخبرته بأمرها فقال "ان تلفنت مرة أخرى قولي لها أنني غير موجود ولو كنت هنا.. مللت هؤلاء الناس الذين ترسلهم ال .C.I.A الينا.. لم يشأ ان يرد على التلفون حين رن مرة ثالثة، وكان المتكلم أخاه صلاح الذي أخبره بوجود سينا موريا في مكتبه، وأنها تريد أن تقابله لأمر هام. (كان هذا اسما أطلقته على نفسها فيما بعد وعرفت به)، ولم يمانع عفيف في مقابلتها وتطوع صلاح أن يوصلها الى بيتنا بسيارته..

حين دخلت رأيت الوجه الذي شاهدته في الصورة التي مزقتها.. كانت شابة فارعة الطول نحيلة شقراء زرقاء العينين، وترتدي طقما ذهبي اللون وتضع على رأسها قبعة صيفية بنفس اللون، واسعة الحوافي تميلها الى الجنب.. ذكرت أنني كنت أرتدي طقما بنفس اللون عندما شاهدني عفيف لأول مرة. قال لي فيما بعد لقد سمّرت في مكاني عندما شاهدتك عند باب الأركان. أتراه وجد فيّ صورتها؟ أتراه لا يزال يحبها؟ أجاءت بعد سنوات لتجدد علاقتها به بعد أن أصبح اسمه لامعا؟ كانت منافسة خطيرة وخصوصا وأنا حامل في بدء شهري التاسع وقد فقدت رشاقتي السابقة. ولكن ما عرفته من صفات عفيف كان يجعلني أستبعد أن يجد عندها ما يجد عندي من سكينة النفس.. تبين لي على الفور ما بينهما من اختلاف، فهناك حاجز اللغة الذي يعيق تمازج الفكر والهدف، لقد كانا يتحاوران عبري، فهما يتحدثان بالإنجليزية التي لا يتقنانها، والتي لا تكفي لأي حوار فكري

أو سياسي بينهما، وكثيرا ما كان يسيء فهمها وتسيء فهمه، وكان هناك خلاف الطبع فهو متواضع وهي امرأة محبة للظهور ولو بشكل مسرحي، ولقد حدّثني يوما أنهما كانا في "هلسنكي" حيث يقام فيها أولمبياد عالمي، فحملت شعلة وعلما أبيض وركضت في ساحة الملعب، وتناولت مكروفونا، وأخذت تتحدث عن السلام فأقبلت الشرطة واعتقلتها.

أذكر أنها سألت عفيف عن اسم ابنتنا فقال لها "سلام" Peace فنظرت اليه نظرة ذات معنى كأنما خطر لها أن عفيف تخلى عن هاجسه في تحرير بلده، وأنه اقتنع بوجهة نظرها بالسلام العبودي الذي يفرضه الأقوياء على الضعفاء.

ذكر لي عفيف ذات مرة أن والدها كان أستاذ جامعة، وكان من أنصار هتلر، وأنه هو الذي رفع العلم الألماني فوق برج ايفل، وانه قتل في الحرب التي شنتها ألمانيا على فرنسا. وأن هذا أثر بها كثيرا فأصبحت داعية للسلام.. وأضاف عفيف قائلا "ان السلام الذي تدعو اليه، ما هو الاّ سلام بين المستعمرين القدامى للتوحّد تحت المظلة الأميركية لقهر شعوب العالم الثالث ونهب ثرواته..

كنت أنا أشبهها في طموحي للسلام، وكنت أنا من دعوت ابنتي "سلاما"، ولكنني كنت أومن بسلام بعد أن تتحرر كل الشعوب من عبوديتها للإستعمار القديم، وتقيم فيما بينها علاقات متكافئة انسانية عقلانية تتخلى عن شريعة الغاب التي تسود العالم. فليست الحياة طويلة بالنسبة لفرد من أي شعب كان أن يشهد في عمره حربا عالمية تسحق وتدمر كل ما بناه الجيل الذي سبقه من حضارة وعمران، في عملية ترميم وبناء لجيل سيأتي بعده، يخوض نفس تجربة التدمير ثم البناء من جديد.. ان لعبة سيادة الأقوى عبر التاريخ جعلت البداوة والبربرية تنتصر على الحضارات، وغرائز الإفتراس تفوق سيادة العقل، والباطل يغلب الحق، والوحش يحكم الإنسان. وليس هناك من شعب بلغت قوته أوجها بقادر أن يستبقي سيادته دهرا طويلا، فالمنافسة الشرسة تزيحه عن احتكار النبع لتبدأ عملية هدر للإنسان وطاقاته الإبداعية وحضاراته. ثم ليعاود تقدمه عبر التاريخ من نقطة الصفر..

قالت لنا أن إقامتها لن تطول في دمشق، وستسافر في اليوم التالي، وأنها تنزل في فندق سميراميس منذ أيام، وأنها جاءت برفقة وفد لتقيم علاقات اقتصادية جيدة بين بلدها وسوريا، وأنها رغبت أن تعرف ماذا فعل الله بعفيف الذي اختفى فجأة وانقطعت أخباره، ولما قال لها عفيف بأنه في العام الذي مضى ذهب في مهمة الى فرنسا وألمانيا، استاءت كثيرا لأنه لم يزرها.. ارتحت لتصرف عفيف وتأكد لي أنه لم يعد يبالي بها كامرأة، وأن علاقته صادقة معي، لست لأنني امرأة فذة، ولكن لأن طبيعته الصدق والصراحة والإنصاف.. لقد عرفته وخبرته رجلا لا يحمل عقد المتذبذبين من الرجال في التحايل والخداع فوثقت به وكان جديرا بهذه الثقة..

تركتهما معا يتحادثان وذهبت الى المطبخ لأعد طعام الغذاء.. كان صلاح قد أوصلها الى بيتنا وبقي مدة قصيرة وانصرف الى عمله.. لا أستطيع القول بأنني كنت هادئة الأعصاب، ولكنني اعتدت دائما أن أتحكم بانفعالاتي ولا أتظاهر بها..

كان لدي معلبات على أنواعها ودجاج ولحم في الفريزر، وبالرغم أن الأمور لم تسر بشكل جيد في المطبخ الاّ أنه كان من يساعدني في شؤون البيت، وكنت تعرفت على مطعم قريب فاستدعيت الحارس، وطلبت منه أن يسعفني بأنواع من الكبة. وكانت المائدة حافلة عندما انتهيت من إعدادها ذلك اليوم، حتى أن سينا دهشت وظنت أن كل ما عليها من صنع يدي، وأخذت بالثناء على مهاراتي في إعداد الطعام فلم أنكر أنني استعنت بمطعم لبعض المأكولات..

وبعد الغذاء أبدت رغبتها في مشاهدة آثارالمدينة: الجامع الأموي، وقبر صلاح الدين، فعوّلت على أن لا أتركها تنفرد بعفيف وقتا طويلا، فقلت لها: "يسرّني أن أرافقكما لزيارة قبر جدي، فأنا بالرغم أنني أسكن مدينة دمشق الاّ أنني لم أزر آثار دمشق مطلقا". بدت متضايقة وأخذت في نصحي بأنني مرهقة وقد يؤذيني السير الطويل، فقلت "لا، ما دمت أنتعل حذاء مريحا فانني أجول شوارع دمشق كلها دون أن أتعب"

أذكر أن عفيف وافق على ذهابي لرؤية الآثار، وتلفن لأخيه أن يصحبنا بسيارته، لأنه لا يحب أن يستخدم سيارة الأركان وسائقه الخاص.. وأن سينا

جلست قرب صلاح، وجلست أنا وعفيف في الخلف. وفي طريق العودة توقفت السيارة عند فندق سميراميس فلم تنزل سينا منها.. التفتت الى عفيف وقالت "أريد أن أحدّثك بأمر هام، وأرجوك أن تنزل معي الى الفندق لأنني أريد أن أحدّثك على انفراد"..

تردّد عفيف، لم يكن يحب مواقف الشبهات.. قال لها "ليس هناك من سر أخفيه عن زوجتي، وهي تعرف بأمرنا قبل الزواج".. غضبت وساء خلقها وقالت "جئت من ألمانيا خصيصا لأراك، ولأقول لك ما هو بالغ الأهمية بالنسبة اليك"..

لم أشأ أن أحرج عفيف، ولم أشأ أن يبقى في جهل بما تريد قوله فيلومني بينه وبين نفسه. قلت له "ان كانت هذه المرأة تريد أن تفضي اليك بسر، فليس هناك من ضرورة لأعلم به.. وشجعه صلاح على اصطحابها الى الفندق وقال له بأنه سيوصلني الى المنزل ويعود وينتظره عند باب الفندق..

لم أسأله أبدا ما دار بينه وبينها من حديث، ولكنني كنت أشعر بأن الدنيا تميد بي، وتملكني صداع رهيب.. كنت حزينة وقد فقدت شعور الأمان، ولكنني لم أكن من الحمق بحيث أتوهم أن رجلا مثله يوقد القلوب حوله ليست له تجربة سابقة في حب امرأة.. ولم يكن ما شعرت به نحو تلك المرأة هو احساس بالكراهية، فأنا التي أخذت مكانها وليس العكس.. ربما جاءت على أمل تجديد علاقتها به، فوجدته قد بنى أسرة وتخلى عنها.. أصبحت أنا الواقع وهي الوهم، ووقع هذا أقسى عليها من وقعه علي ان كانت لا تزال تحبه..

أذكر حين كنا على المائدة جرى حديث بين سينا وعفيف عن الشعار الذي رفعه جواهر لال نهرو وجمال عبد الناصر وجوزف تيتو في "عدم الإنحياز" وناضلوا لتعميمه بين دول العالم الثالث ليكونوا وسطاء بين الإتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأميركية كي يقيما علاقات صداقة ومودة بدل الحرب الباردة بينهما، وموقف سوريا من هذا الأمر فأجابها "ونحن أيضا من أنصار السلم بين هاتين الدولتين، ولكننا لسنا من أنصار الإستسلام للمستعمرين الأميركان ومخططاتهم في المنطقة"..

كان عفيف في تلك الفترة يشعر بأن مقاومة الإستعمار الحديث في منطقتنا هي فرض ومسؤولية تاريخية تقع على عاتق قادة الحركة الوطنية، فالإستعمارالقديم قد هزم بكل أشكاله في فييتنام وكوريا والجزائر وكوبا، وشعوب العالم الثالث كلها تتطلع الى الخلاص من النظام الإستعماري القديم الغارب دون الإنتباه الى مايحدث من هجمة الإستعمار الجديد على الحركات الوطنية لإجهاضها أو ايقافها عند حدود محاربة القديم لتحتل هي الساحة بعده.. ولهذا كان يشعر بأن شعار الحياد وعدم الإنحياز هو شعار فارغ لا يعني الاّ بقاء العالم الثالث منخرطا في نظام الإحتكار الرأسمالي العالمي الذي تحمل لواءه اليوم الولايات المتحدة الأميركية في استعمارها الجديد..

لقد أدرك عفيف قبل سواه من قادة الحركات الوطنية الخطر الكبير للهجمة الإمبريالية الأميركية وللإستعمار الجديد، ولم يقع في السراب الكاذب الذي منّى قادة آخرين بامكان بلوغ سوية المتقدمين الإستعماريين وهم أسرى نظامهم العالمي. وكان ما كشف بصيرته هو تلك المحاكمات التي أظهرت له الوجه الكالح لأميركا، وتآمرها الذي لا يكل في افساد الجيش والأحزاب وضرب النظام الديموقراطي في سوريا!..

جلست على الديوان أداعب شعر سلام وأنا شاردة.. عاد بعد أن صرف المرأة العجوز التي جاءت تسترحمه للإفراج عن ابنها العسكري السجين المتهم بسرقة تنكة بنزين، وجلس قربي على الديوان.. لم أشأ ان أفاتحه بأمر سينا أو أن أسأله بما كان بينه وبينها.. كنت أنتظر أن يبدأ هو بإخباري ولكنه لم يفعل. كنت أضم ابنتي سلام التي أغفت بين ذراعي.. أخذها مني ووضعها في سريرها وعاد الي وقال "أعلم لم أنت قلقة.. سأخبرك بما حدّثتني به هذه المرأة في وقت مناسب، أما فيما يهمك ويشغلك من أمرها فثقي أنني لا أشعر نحوها بأكثر مما أشعر نحو تلك المرأة العجوز التي جاءتني تطلب الإفراج عن ابنها.. انها غريبة عني تماما ولا أصدقها ولا أعرف من وراءها..

* * *

الجبهة الوطنية

مرت فترة كان عفيف مشغولا بمشاكل البلد بعد صدور الحكم في قضية الشهيد عدنان المالكي، وكان همه تشكيل امتداد للجبهة الوطنية المدنية لتشمل العسكريين، فكان يكثف اجتماعاته بهم، ويدعو الى رص الصفوف بينهم، ولقد لامه كثيرون أنه لا يصنع تكتلا خاصا به، ولكنه كان منصرفا عن هذا، ساعيا لايجاد لحمة توحّد ما بين التكتلات المختلفة في الجيش، المتنافرة فيما بينها، بشدها الى هدف واحد، وهو حماية سوريا من التدخل الأجنبي في شؤونها، وسدّ كل ثغرة ينفذ منها أصحاب الطموحات المريضة الى الحكم المطلق. وكان يعضده في هذه المهمة بتفهم عميق كتلة الضباط الفلسطينيين الذين كانوا طليعة للفئات العربية الثائرة بتجانسهم الفكري ووعيهم..

في الشهر الذي زارتنا فيه سينا موريا، نشر الصحفي الأميركي "جوزيف ألسوب"، وهو من ألمع الصحفيين مقالا في الهيرالد تربيون تتبأ فيه بأن عبد الحميد السراج سيكون الدكتاتور المقبل لسوريا، وكان هذا الدس من أساليب المخابرات الأميركية لتحريك أطماع الإنتهازيين في الجيش السوري. ذكرت في تلك اللحظة ما أخبرني به المراقب الأمريكي حين أجريت امتحاني في بيروت عن عبد الناصر وأنه المؤهل لزعامة الأمة العربية في الوقت الذي لم أكن سمعت به، وكان اسم محمد نجيب يملأ الأسماع.. وأحسست بانقباض في صدري!

في نفس الوقت كان عفيف في اجتماع للعسكريين لبحث ما يتعلق بالجبهة الوطنية. وقد طرح أحد الضباط اسم السراج ليكون قائدا لهذه الجبهة في الجيش، فهب الحاضرون يعنفونه بما فيهم السراج نفسه ويقولون له "نحن نسعى الى إقامة مدرسة تسهر على صيانة ارتباط جماهير العسكريين ببقية جماهير الشعب والأمة وليس لاقامة ديكتاتورية عسكرية يتقاسم أهلها المغانم"..

كان من عادة عفيف أن يخبرني بالإنجازات التي تحققها الجبهة حتى غدت تسيطر على الأركان بكل شعبها ودوائرها فما كان من أمر هام يقوم وينفذ في الجيش الا بتدبيرها أو موافقتها ومن خلالها..

كنت قد أنجبت يوسف في 9 حزيران من ذلك العام وشغلت به، وبعد مرور شهور تسعة على ولادته، كان منزلنا غاصا بالعسكريين، دخل علي عفيف وقال "هناك أزمة في الجيش وأخشى أن تتعرضي والصغيرين للأذى.. لا تخافي، سيكون كل شيء على مايرام، فقط خذي حاجاتك الضرورية واذهبي لزيارة أهلك في اللاذقية، والتزمي الصمت أمام أي كان، حتى تصلك برقية مني فتعودي الى دمشق"..

أمضيت فترة عند أهلي، ثم استضافتني أختي الكبرى للسفر معها الى صلنفة، حيث استأجرت بيتا للإصطياف.. لم يكن هناك من أحد يعرفني، وأمضيت وقتا ممتعا مع أختي وبناتها نتجول في الغابات، ولقد تورّد وجها الصغيرين خلال فترة قصيرة، وعلمت أختي يوسف المشي، وكنا نحيط به أنا وبناتها وهو واقف بيننا يخطو خطواته الأولى وتتلقفه أيدينا كيفما توجّه وسار.. ووصلت البرقية فعدت أدراجي وودّعت أهلي ورافقني أخي في سفري.. ما كنت أدري ماذا جرى في دمشق في غيابي.. كان السائق يفتح المذياع على الأخبار، وسمعت خبر استلام العقيد عفيف البزري رئاسة الأركان!..

لم يكن الأمر انقلابا، فعفيف تدرّج في رتبه العسكرية تدرّجا، وكان قبل سفري مستاءا من اللواء نظام الدين قائد الجيش الذي قدّم استقالته، وبذل كل جهد ممكن لإقناعه بالعدول عنها، ولكنه أصرّ عليها لأسباب تخصه. ما كان عفيف راغبا في استلام هذا المنصب فهو عمليا قائد الجيش من خلال الجبهة الوطنية، ولكنه كان في خشية من تنافس الضباط على هذا المنصب فيقع بينهم الخلاف بسببه..

* * *